قياس الاخلاق

توطئة

وهل بالوسع قياس الاخلاق ؟ أيمكن يوماً من ادراك هذا الامل البعيد فنضحي قادرين على سبر غور النفوس دون ان نتحمّل عواقب الاختبار الطويل والتجربة المرّة ؟ هل يمكننا الزمن من هذا فنصبح قادرين على تمييز الكاذب من الذي شيمته الصدق والخادع من الامين والحب الماكر من ذي الخلق الثابت المتين ؟ هل من حيلة تعيننا على تمييز الشجاع من الجبان والكريم من البخيل والزاهد من ذي الطماح الشديد دون ان ندع ذلك للايام وكثيراً ما تخدع وعاطل الايام ؟ ان كان الجواب بالايجاب فيا لفرحتنا ! واي ذويه اشهى الى النفس وامتع لها من ان نكون على بيّنة ممن نحتك بهم ونحتكون بنا ، نخالطهم ونخالطونا ونبثّهم ويبثّونا ؟ للعلم وحده حق الاجابة وليس لشيء غيره ان يجيب . فهل هو مجيبنا الآن بما يحقق هذه الاماني او هو يُقرّ بالعجز والافلاس في هذه الناحية فيحلّ الحيرة محل الامل واليأس محلّ الرجاء ؟

الحقيقة ان العلم ليس على استعداد تام ليجيب بالايجاب عن هذه الاسئلة ، ولكنه ايضاً لم يبقَ جامداً حيث كان ازاء هذه الناحية من نواحي فحص النفس . فالواقع ان هناك محاولات وجهوداً جدية يقوم بها نفر من علماء النفس لا الفلاسفة . وهذا يدعونا نوعاً الى التفاؤل ، لان المباحث الاخلاقية حقّاً لا يرجى لها الخير من غرفة الفيلسوف بل من مختبر العالم — كعالم النفس الذي لم يتقدّم خطوة واحدة الا لما افلت من قبضة الفلاسفة واضحى خاضعاً لتمحيص العلم وتدقيقه . نقول هذا لا لنحط من قدر الفلسفة والفلاسفة انما نحن لسجّل حقيقة واقعة . فالمباحث الاخلاقية لم تكتسب كثيراً او قليلاً عن طريق الفلسفة فيما نعتقد . اما موطن هذه المحاولات فهو بالطبع اميركا — بلد المقاييس والموازين . واما غرضها فهو كالغرض من اكثر مباحث الاميركان في علم النفس — الانتفاع منها عملياً في دور الدراسة والصناعة ، وفي عالم التجارة والسياسة والتهذيب . ونحن فيما يلي سنحاول ان نبسط بسطاً موجزاً نتائج هذه المحاولات ، ونرى هل في اسلوبها ما يدل على انها بداءة حسنة او انها مولود عليل لا ترجى له حياة طويلة مثمرة . ولكننا قبل ذلك نود ان نذكر بعض الاساليب والمحاولات الاخرى التي تقدّمت هذه المحاولات الحديثة

الاساليب القديمة

من اقدم اساليب الحكم على اخلاق المرء النظر في تركيب الجسم والرأس والتفرّس في تقاسيم الوجه (ومن هنا لفظ الفراسة)وهو احد الاساليب العديدة التي مارسها القدماء. وقد كانت احكامهم في هذا الشأن مبنية في الغالب ، على اسس واهية من قياس التمثيل : نذكر على سبيل المثال ما جاء عن ارسطو وهو قوله : « اولئك الذين لهم رؤوس كبيرة هم حكماء كما ان الكلاب حكيمة . اما الذين لهم رؤوس صغيرة فهم بلهاء كالطير . والذين لا يستحيون هم كالطيور لهم مخالب معكوفة »

وقد ظلّ هذا الاعتقاد بامكان معرفة اخلاق المرء من النظر الى ملامح الوجه او تركيب الرأس وغيره من اعضاء الجسم سائداً طيلة العصور المتقدمة. ولم تعدم هذه الاساليب من بينها غايته الآن من علماء النفس والتشريح فيحاول ان يبنيها على شبه اساس علمي . فنحن نعلم من هذه الاساليب اليوم اسلوب الحكم على اخلاق المرء من النظر الى صورته الشمسية وفحص تواآت رأسه . الاّ ان هذه الاساليب ، بعد كثير من الفحص والتجربة ، ظهرت بانها عديمة الجدوى قليلة الفائدة

فاتجه البحث — بعد ان افلست الاساليب السالفة — اتجاهاً آخر : وهو محاولة ايجاد صلة ثابتة بين بعض التغيرات الفزيولوجية في الجسم وبين الاخلاق . والمباحث في هذا الباب كثيرة ومعقدة نكتفي بايراد بعضها هنا على سبيل المثال . فقد وجد بعض علماء الفزيولوجيا ان معدّل سرعة التنفس قبل قول الكذب تنقص عنها بعده — هذا اذا كان قائل الكذب يعلم انهُ سيحاسب على كذبه . وفي الاحوال التي يقول فيها المرء الصدق يكون تنفسه في البداية اسرع منهُ في النهاية. ووجدوا ايضاً ان ضغط الدم يزداد عند ما يتعمّد المرء تشويش الحقيقة ، كذلك وجدوا ان تغيراً كهربائيًّا يعتري الجسم حينما يحاول المرء اخفاء الحقيقة . ومن الباحثين من يزعم ان ثمة علاقة بين مقدار ما في الدم من ثاني اوكسيد الكربون والتلعثم . ومنهم من يزعم ان هناك علاقة بين ما يوجد في البول من حوامض وبين ميل المرء الى التسوّد وحب السيطرة . الاّ ان هذه الاختبارات والمباحث لم تشجع العلماء على استغلال نتائجها لصفتها الشخصية اولاً وتعقيدها ثانياً . على ان هذا لا يعني انهُ ليس من فائدة في طرق باب البحث الاخلاقي من هذه الناحية . فانهُ مما لا شك فيه ان هناك علاقة اكيدة بين سلوك المرء في احوال خاصة وبين مفرزات بعض الغدد الصماء ، كما في حالة الخوف والغضب والانشراح . ولكننا نعيدها قائلين : وهو ان المباحث في هذا الباب لا تزال معقدة ومتناقضة النتائج . فليس من الرزانة والحيطة العلمية اذاً ان يركن اليها

الاختبارات النفسية الحديثة

ولما لم تجد الاساليب المتقدمة اخيرا نخبة من علماء النفس في اميركا ينظمون الاختبارات الدقيقة لقياس بعض الصفات الخلقية واخصها صفتا الامانة والخداع بانواعهما. وذلك لما لهاتين الصفتين من اثر في شؤون التربية والتهذيب. وهذه الاختبارات هي من الكثرة والتفصيل بحيث لا نستطيع بسطها هنا. ولكننا، على كل حال، موردون مثالين بسيطين منها ليدرك القارئ طبيعتها وهما: اختبار المسارقة واختبار ورقة البارفين

اما اختبار المسارقة فيجري على طرق شتى: منها ان يؤتى التلاميذ المراد قياس خلق الامانة فيهم بقطع من الخشب تكون شكلاً معيناً لدى ضمها بعضها الى بعض بطريقة معينة، وقد درس احتمال النجاح في هذه العملية والبيان مفصلان فوجد ان نسبة الاصابة الى الخطإ فيها هي كنسبة ١ الى ١٦ اي ان المرء ليصيب مرة واحدة عليه ان يجرب ست عشرة مرة. اما نسبة احتمال النجاح مرتين متواليتين فهي كنسبة ١:٢٥٦. وثلاث مرات هي كنسبة ١:٤٠٩٦. فاذا اصاب احد المختبرين مرات متوالية في تركيب هذا الشكل يحكم وقتها انه فتح عينيه

واختبار ورقة البارفين هو ان يؤتى بدفتر ذي اربعة اوجه: الوجه الاول فيه عدد من الكلمات التي يراد إيراد اضداد لها وكتابتها مقابلها. والوجه الثاني والرابع ايضان. والوجه الثالث عليه اختبار ثان يطلب من التلاميذ فيه ان يرسموا شكلاً معيناً. وهذا الوجه مثبت عليه بواسطة مامكات اربع ورقة من الشمع (البارفين) تظل التعليمات واضحة تحتها

توضع دفاتر من هذا النوع بين ايدي الطلبة المراد امتحانهم في خلق الامانة. ثم يطلب اليهم ان يفتحوا عند الوجه الثالث ويشرعوا في عمل الاختبار وهو رسم الشكل. وعندما ينتهون يطلب اليهم ان يطبقوا الدفاتر بحيث يصبح الوجه الاول الى اعلى. ثم يشرعون بالاجابة عن اختبار الاضداد. وعند نهاية الوقت المعين يؤخذ الاختبار المرسوم على الصفحة الثالثة مع ورقة الشمع للتصليح ويخرج المتحنون والمراقبون بحجة التصليح ولا يبقى في غرفة الامتحان الا رئيس المتحنين. ويشرع هذا يقرأ على الطلبة الاضداد الصحيحة وفي الوقت نفسه يعطي التلاميذ فرصة تامة للخداع — ككتابة ضد لم يكتب او نحو آخر وكتابة غيره بدلاً من (الاجابة تكون بقلم رصاص). وذلك كأن يخرج الى الخارج بحجة احضار شيء ما او ان يأتي من يدعوه الى الخارج (يكون ذلك عن تواطؤ). ثم تؤخذ هذه الاوراق وتقابل باجابتهم الاولى التي تركت اثرها على ورقة الشمع، فيعرف عندها الخادع من الامين. اما الذي يحاول الخداع ولو مرة واحدة فيعطى صفراً عن هذا الاختبار. وتضم هذه النتيجة الى نتائج الاختبارات الاخرى

وكان من اسبق الباحثين الى هـذا النوع من الاختبار الاستاذ پايل فولكر (Pale Valker) فقد حضر هذا عدداً من الاختبارات دعاها « اختبارات الاجابة غير المحتملة » . وهي في ظاهرها اختبارات بسيطة، ولكن حينما تحدَّد طريقة الاجابة عنها — كالاجابة والعينان مغمضتان — يكون احتمال الاجابة الصحيحة ضعيفاً جدًّا . الاَّ ان الذين كان لها القدح المعلى في هذا الباب هما الاستاذان سيشورن من كلية المعلمين في جامعة كولومبيا وماي (May) من جامعة پايل

عمد هذان الاستاذان الى الاختبارات القليلة التي عملها فولكر وعدّلاها بحيث اصبحت تلائم غرضهما اعدَّاها عدداً من الاختبارات واجرياها جميعها على عدد كبير من التلاميذ من مدارس مختلفة . وقد طبعا هذا البحث في كتاب جليل دعواه « بحث في الخداع » . وكما هو ظاهر من عنوان الكتاب لم يحاول الاستاذان ان يختبرا من الصفات الخلقية غير هاتين الصفتين صفة الامانة وصفة الخداع . اما بقية الصفات الاخرى فقد ارجآ قياسها الى بحوث اخرى يجريانها في المستقبل . ولذا فنحن قادمون على عصر من البحث العلمي في الاخلاق قد يأتينا بالمدهشات ويضطرنا الى تصحيح كثير من آرائنا في مسائل التربية الخلقية

اما الاساليب التي جرى عليها الاستاذان والمعادلات الرياضية والاحصاآت الخاصة الدقيقة التي استعانا بهـا فهي من الصعوبة والتفصيل بحيث لا يتسع المجال لبسطها هنا ولو بسطاً موجزاً . ولذا فاننا مقتصرون فيما يلي على سرد النتائج العامة التي خرجا بها من بحثهما

اظهرت هذه الاختبارات ان التلامذة المتقدمين بالسن ، على وجه الاجمال ، اميل الى الخداع من صغار السن . وظهر من هذه الاختبارات ايضاً ان الاناث اميل الى الخداع في المسائل التي لها مساس بالشؤون المنزلية اكثر من الصبيان . الاَّ ان الذكور كانوا يظهرون ميلاً اعظم الى الخداع في انواع اخرى من الاختبارات . وفي قسم من هذه الاختبارات كان التلامذة من الجنسين متعادلين في ميلهم الى الغش . ومن هذا يستنتج المؤلفان انهُ لا فرق كبير بين الجنسين من حيث الاحساس بالشرف او عدمه

وابانت هذه الاختبارات فساد الاعتقاد السائد بان الميل الى الخداع يقترن دائماً بالذكاء بل بالعكس اظهرت هذه الاختبارات ان البلاهة تمشي جنباً الى جنب مع الميل الى الخداع والسرقة والكذب . ولكن يجب الاَّ يفوت القارئ ان هذه النتائج هي في كل الاحوال معدّلات . فهي لا تدل على ميل التلميذ الواحد الى هذه الناحية او تلك انما هي تدل على ميل التلاميذ على الاجمال . ولذا فقد نجد تلميذاً قليل الذكاء ولكنهُ في الوقت ذاته امين . كذلك قد يكون من الاذكياء من هو اكثر الناس غشًّا . وظهر من هذه الاختبارات ان التلامذة

شديدي الثبات العاطفي — اي الذين تصعب زحزحتهم عن مواقفهم العاطفية — كموقف الغضب والرضى والحزن والفرح والحب والكره — هم اقل ميلاً الى الخداع من شديدي التقلب العاطفي

ثم اثبات هذه الاختبارات ان ليس ثمة علاقة بين احوال الجسم الفزيولوجية وبين الميل الى الغش والخداع . فقد اظهرت المباريات الرياضية ان ضعاف الاجسام من التلاميذ ليسوا اقل من رفاقهم اقوياء الاجسام تبريزاً في ميدان الشرف ، بخلاف السائد من ان التلاميذ الضعاف يميلون في المباريات الرياضية الى الغش ليحظوا بمقامهم البادي

ووجد هذان الاستاذان ان التلامذة الاغنياء كانوا اقل ميلاً الى الخداع من التلامذة الفقراء . ومثل هذه النتيجة ظهرت من حيث علاقة الثقافة العائلية بميل الابناء الى الخداع. فقد وجد ان ابناء العائلات المثقفة تثقيفاً عالياً والتي تعامل ابناءها بالعطف واللين اميل الى الامانة من ابناء العائلات قليلة الثقافة والتي تقسو في معاملة بنيها . ووجد ان هناك علاقة شديدة بين مهنة الابوين وبين ميل ابنائهما الى الخداع. فالتلامذة الذين يشتغل آباؤهم بالمهن العالية كالهندسة والطب والتعليم كانوا اقل ميلاً الى الخداع من ابناء الطبقات الاخرى

وظهر ايضاً ان التلامذة الذين تفوق سنهم متوسط اعمار التلاميذ في صفوفهم يكونون اميل الى الخداع. ولعلَّ هذا ناجم عن احساسهم بالتخلف (بالنسبة الى اعمارهم) فيحاولون ان يعوضوا عن ذلك بالخداع. اما صغار السن من الطلبة فقد كانوا دون المتوسط في الميل الى الغش

ولكن اغرب ما اظهرته هذه الاختبارات ان التلامذة الذين ينالون علامات عالية على السلوك كانوا ، في الحقيقة ، اكثر الناس ميلاً الى الخداع . فكأن ما في هذه العلامات من اغراء كان يجعل التلامذة الخداعين يلبسون في سلوكهم الظاهر رداء يخفي حقيقتهم . فلما جاءتهم هذه الاختبارات اظهرتهم على علاتهم. ومن اهم ما اظهرته هذه الاختبارات ان هناك تناسباً طردياً بين سلوك الاساتذة وبين ميل التلاميذ في صفوفهم الى الخداع والسرقة والكذب

ومن اغرب ما اظهرته هذه الاختبارات ان التلامذة الذين يشتركون في جمعيات ومؤسسات غرضها الاول تعليم التلامذة وتمويدهم الامانة والاستقامة كفرق الكشافة ومدارس الاحد ليسوا اكثر امانة من غيرهم . وهذا يدعو الى الشك في قيمة هذه المؤسسات والتساؤل عن فائدة المبالغ الطائلة التي تنفق عليها

على ان اهم ما اظهرته هذه الاختبارات وما يرجى ان يثير براجح التهذيب الاخلاقي تثييراً كبيراً هو ان الميل الى الخداع ليس عامًّا عند الشخص الواحد . ومعنى هذا ان المرء قد يتعمَّد الغش في ظرف خاص ، ولكن ليس من الضروري أن يغش في جميع الظروف الاخرى . وهذا واقع مشاهد في حياة الناس اليومية . فالتلميذ الذي ترتجف اوصاله لدن

يتصوَّر ان يمد يده الى جيب صديقه بقصد السرقة قد لا يجد غضاضة في سرقة أسئلة الامتحانات من غرفة الاساتذة . وهذا ملحوظ ايضاً في سلوك الناس خارج جدران المدرسة . فتلان قد يكون قسًّا فاضلاً ورعاً لا تحدثهُ نفسهُ قط في الاستيلاء على اموال الغير مهما بلغت منه الفاقة والخصاصة ؛ ولكنهُ لا يحجم ولا يتحجم ان يجلس الى مكتبته ليلة الاحد ويعمل يدهُ فيما تضمتهُ رفوفها من ثروة فكرية لا تحسب عندها الثروة المادية شيئاً . ثم يؤم المصلى صباحاً فيلقيها خطبة رنانة لا يشير فيها ادنى اشارة الى مصادرها . فيذهب القوم يكيلون له من المديح والاطراء ما يكاد ينسيه انهُ زار المكتبة في الليلة الغارطة

ومن هنا يستفيد هذان الاستاذان ان التهذيب الاخلاقي يجب ان يكون خاصًّا إفراديًّا اي انك اذا رمت ان تعوِّد بنيك الامانة او غيرها من الصفات الخلقية فيجب ان تضعهم في بيئات خاصة تجعل قيامهم بها وممارستهم لها امراً طبيعيًّا . فاذا اردت ان تغرس فيهم خلق الصدق لا يكفي ان تلقي عليهم كل يوم عظة في معنى هذه الفضيلة واثرها وقيمتها — لا يكفي ذلك كما لا يكفي ان تدربهم على سوق السيارة ليصبحوا قادرين على ركوب الدراجة انما الواجب ان لا تضعهم في ظروف يضطرون فيها الى الكذب اضطراراً

ولسائل ان يسأل اخيراً . وما مقدار الثقة التي نستطيع ان نضعها في نتائج هذه الاختبارات ؟ ولم يترك المختبران الشك يتطرق الى القارىء من هذه الناحية . فقد وجدا بواسطة طرق رياضية خاصة ان نسبة ثبوت هذه الاختبارات وصلاحيتها لقياس خلق الامانة والغش هي نسبة عالية . فقد كانا يقيسان الصفة الخلقية الواحدة ثم يرجعان الى قياسها مرة اخرى فلا يجدان فرقاً كبيراً بين النتيجتين . وهذا دليل ثابت على صلاحيتها

وقد يتسرَّب الشك الى القارىء من ناحية اخرى وهي احتمال ان لا يكون تصرف التلاميذ في الامتحان تصرفاً طبيعيًّا . ولكن المختبرين قد احتاطا لذلك اشد الحيطة ، فلم يدعا المختبرين يحسون ، في معظم الاحوال ، ان هذه الاختبارات سوف تكون حكماً على اخلاقهم . فقد اجتهدا ان يخفيا غرض هذه الاختبارات عن التلاميذ ما امكنهما . فكانت تعمل كل التسهيلات ليتصرَّف الطالب في غرفة الاختبار كما لو كان في الخارج ولا رقيب عليه وقد تجنب المختبران ، بنوع خاص ، التجارب الشديدة الاغراء . فلم يضعا بين ايدي الطلبة مقادير كبيرة من الدراهم مثلاً ، ليريا هل ينفق منها التلاميذ او تسوّل لهم النفس اخذها . فغرضهما الاول كان ان يعرف كيف يتصرَّف الناس العاديُّون في احوال عادية . ولذا لم يحاولا ان يضعا الطلبة في احوال لا يؤمن تأثيرها في اقوى التلاميذ خلقاً واشدهم دفعاً للتجارب

اربد — شرقي الاردن اديب عباسي